باب تدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم اهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الازهار (١)

لجناب السيدة ياقوت صروف

سيداتي الكريمات

انكنّ اخترتنني خطيبة لهذه الجلسة في فصل تكلّلت فيه عرائس الطبيعة باكاليل الازهار ورقصت لها قدود الرياحين وغنّت سواجع الاطيار وفاح عرفها فاحيى النفوس وتضوّع منها طيب لا يُذكر معه طيب العروس فكيفما اتجه الانسان لا يرى الّا روضًا اريضًا وغصنًا غضيضًا وعقدًا منظومًا ووشيًا مرقومًا ولا يسمع الّا اطيارًا مغرّدة وسواجع مرددة ولا يشمّ الّا مسكًا منتّنًا وطيبًا معبّقًا

والارضُ قد لبسَتْ رداه اخضرا والطلُّ ينثرُ في رُباها جَوْهرا
هاجَتْ فخلتُ الزّهرَ كافورًا بها وحَسِبتُ فيها التُّربَ مسكًا اذفرا

والطلُّ في سِلكِ الغصونِ كلؤلؤه رطبٍ يصافحهُ النسيمُ فيسقطُ
والطيرُ نقرأُ والغديرُ صحيفةٌ والريحُ تكتبُ والغمامُ ينقّطُ

فاجتذبتني محاسن الرياض الى اتخاذ الازهار موضوعًا لكلامي واخذلت عقلي بدائع الربيع فوقفتُ على وصفها خطابي . فاسعفني بحلمكنّ واسبلنَ على قصوري ذيل المعذرة

الانسان كما لا يخفى عليكنّ سيّد المخلوقات وقد سخّرها الله لخدمته وراحته وفرحه وسعادته وترقية عقله في مراقي الكمال وتربية ذوقه على حب الجمال واطلاق لسانه بحمد ذي المجد والجلال وكلها جميلة في بنائها وتركيبها مفيدة في تحكيمها للغايات المقصودة منها . ولكنها تتفاوت حسنًا وبهاء كما تتفاوت كواكب السماء مجدًا وضياء . وعندي ان الازهار ابدعها منظرًا وقد لهج الشعراء

(١) خطبة تلتها في جمعية باكورة سورية في جلسة ٣٠ ايار (مايو) سنة ١٨٨٥

بوصف محاسنها قبل ان عرف الناس شيئًا من منافعها دلالة على ان الحسن صورة في الذهن مجرّدة عن النفع والضر. ولطالما عجبتُ كيف ان رجلاً مثل عنترة بن شداد الذي اعتاد الحرب والطراد وسلب الاموال والفتك بالرجال وربي في رعاية الانعام وسكن الخيام يستطيع ان يصف الازهار وصفًا لطيفًا ويعدد من انواعها صنوفًا. والظاهر ان العرب من بدوٍ وحضرٍ اعتنوا بالرياض اكثر مما يعتنون بها اليوم وربوا من الازهار انواعًا كثيرة فقد ذكر الصفيّ الحلي في زهرياته عشرة انواع من الازهار المختلفة وهي الورد والياسمين والنرجس والآذريون والبهار والمنثور والشقيق والسوسن والزنبق والاقحوان. وذكر ابن حبيب الحلبي ثمانية عشر نوعًا وهي الورد الاحمر والابيض (النسرين) والابيض المشوب بالحمرة الذي يقول فيه

كأنّ وجوهه لما تواقتْ بدورٌ في مطالعها سعودِ
بياضٌ في جوانبه احمرارٌ كما احمرّت من الخجل الخدودِ

والنرجس والياسمين والبنفسج وشبّه زهر البنفسج بلهب الكبريت اذ قال

كأنه وضعاف النضبِ تحملهُ اوائلُ النارِ في اطراف كبريتِ

ولون البنفسج كلون لهب الكبريت ولكن الذهن يسبق عند ذكر الكبريت المشتعل الى رائحته الخبيثة الخانقة وهي بعيدة عن رائحة البنفسج بُعد الثريا عن الثرى. ولا اعلم ماذا يقول علماء البيان في هذا التشبيه. وذكر ايضًا الزعفران والليتوفر والخزامى والاقحوان والآذريون والشقيق والبهار والمنثور الابيض والاحمر والاصفر والسوسن الازرق والابيض

وكأن شعراء العرب كانوا يتعمدون ذكر الازهار ذات العرف الطيب ولم يذكروا زهرًا خبيث الرائحة الّا الشقيق الذي يريدون به الخشخاش البرّي. او كأن العرب لم يكونوا يزرعون الّا الازهار العطرة (بخلاف الافرنج ومن جاراهم من المحدثين الذين يزرعون في جناتهم ازهارًا كثيرة لا رائحة طيبة لها كالداليا الجميلة المنظر الخبيثة الرائحة) الّا انهم كانوا يستحسنون الازهار الجميلة البرية طابت رائحتها او خبثت ولذلك كثر وصف شعرائهم للشقيق والتشبيه به

واشكال الازهار كثيرة بين شمسية وكاسية وفراشية وبين بسيطة ومركبة ومفترقة ومجتمعة الى غير ذلك مما لا يقع تحت الحصر. والوانها تفوق العد ففيها الالوان السبعة الاصلية وكل تنوعاتها الحاصلة من امتزاج بعضها ببعض. ومهما اجتهد المصورون لا يستطيعون ان يأتوا بمثلها تمامًا. ورائحتها لا يعبّر عنها باللسان ولا بالقلم وليس لها اسماء عامة في اللغة فلا يعبّر عن رائحة الورد الّا برائحة الورد ولا عن رائحة البنفسج الّا برائحة البنفسج. ولم تحدث هاتيك الاشكال ولا تلك الالوان ولا هذه الروائح بالصدفة والاتفاق بلا قصد ولغير غاية بل لكلٍّ منها غايات ومقاصد

عرَف العلماء بعضها ولم يزالوا يبحثون عن البعض الآخر

ومهما تنوعت اشكال الازهار تتفق في امور جوهرية وهي احتوائها على الاعضاء التي يتم بها تكثير نوع النبات لان الاثمار والبزور لا تتولد في النبات كما تتولد الاوراق بل لا بدّ لها من هذه الاعضاء . والتدقيق في ذلك من متعلقات علم الفسيولوجيا النباتية فلا اتعرّض له . ولا يبعد ان يكون لكل شكل من اشكال الازهار ولكل لونٍ من الوانها ولكل رائحة من روائحها فائدة خصوصية حتى الازهار الخبيثة الرائحة التي رائحتها مثل رائحة اللحم المنتن لرائحتها هذه فائدة خصوصية وتفصيل ذلك مما لا يناسبه المقام . ويجب ان يكون الامر كذلك لان الله لم يخلق شيئًا عبثًا ولو وُجد في النبات شيء لا فائدة منه لضعف وزال على توالي السنين . ولكن ما اقل الناس الذين ينظرون الى زهرة اللوبياء الفراشية المنظر مثلاً ويعلمون ان لكل جزء من اجزائها ولكل لونٍ من الوانها منفعة خصوصية لنبات اللوبياء . ومالي وللخوض في هذه المواضيع العويصة فاتركها والتفت الى ما هو اقرب منها تناولاً واسهل ادراكًا واحصر الكلام في فوائد الازهار

فمن هذه الفوائد تكثير نوع النبات . والظاهر ان النبات قد تكيَّف على كيفيات شتّى تسهيلاً لهذه الغاية كأنهُ حيٌّ عاقل . وعلماء الحياة يذكرون لكل اختلافات الازهار اسبابًا طبيعية تأول لتقوية النبات الاَّ التكييس فاني لم ارَ له فائدة لان الزهر المكيَّس عقيم . ولكن التكييس من صنعة الناس لا من صنعة الله فلا عجب اذا كان بلا فائدة للنبات

ومنها بهجة البشر وتسليتهم عن همومهم . فكم من مرة حاربتنا جيوش الهواجس ونشرت على وجوهنا براقع الغم فضاقت بنا الدنيا وحسبنا الحياة حملاً ثقيلاً ثم دخلنا روضة كثيرة الازهار والرياحين او جاءنا احد بطاقة منها فابتهجت عيوننا بمنظرها البديع وانتعشت نفوسنا بعرفها الطيب وزالت عنّا جيوش الهموم ونسينا ما كان بنا من الكآبة وصغر النفس . وقد عرف الناس هذه الحقيقة من قديم الزمان واستعانوا بها على تنفيس كروبهم وتسلية الذين ثقّل الدهر عليهم واوقعهم في مصائب شديدة . وعلمها الاطباء ايضًا واستخدموها في تطييب المرضى ولا سيما المصابين بالسوداء ولذلك تحاط المستشفيات بالجنائن ويحرَّض المرضى على النزهة فيها وتزيين غرفهم بها . وخير هديّة تهدى للمريض المتقلّب على فراش المرض طاقة من الازهار الجميلة توضع امامهُ ليبتهج نظرهُ بها او يتنعش برائحتها . ومنها تربية الذوق السليم والعواطف الطاهرة . فقد قيل ان سليمان الحكيم مع كل مجدهِ لم يلبس كواحدة من الازهار . فاذا اعتادت الفتاة روّيتها جرّدت منها صورًا جميلة ترسخ في ذهنها وتهذّب ذوقها وتدربها على ترتيب اثاث بيتها ترتيبًا تبتهج به العين وترتاح له النفس . ولا يخفى عليكنّ الفرق العظيم بين بيت امتعتهُ مرتبة ترتيبًا جميلاً بحسب الوانها

وبيت آخر امتعة من اثمن الامتعة ولكن الوانها لا يوافق بعضها بعضاً فتتعب العين من رؤيتها وتعاف النفس النظر اليها . وعندي انهُ يجب على كل والدة ان تربي اولادها على محبة الازهار والاعتناء بها لان ذلك يهذّب ذوقهم ويربي فيهم محبة الجمال والترتيب مع ما يتبعها من الاخلاق الشريفة الطاهرة

ولا ينحصر نفع الازهار بنا نحن نوع الانسان بل يعمُّ طوائف كثيرة من الحشرات ولا سيما النحل التي تجني منها شيئاً لا يغيّر شكلها ولا لونها ولا رائحتها وتصنع منهُ الشمع والعسل قوتاً لصغارها وطعاماً لها وللانسان . وقد ألفت النحل الازهار اشد الالفة فتقصدها من كل مكان وتميّز بينها وبين الازهار الصناعية على ما قيل مهما أُتقن صنعها ومن ذلك القصّة المشهورة وهي ان ملكة سبا التي اتت لتمتحن حكمة سليمان قدّمت لهُ طاقتين من الازهار واحدة طبيعية والاخرى صناعية فلم يمكنهُ ان يميّز بينها مع وفور حكمتهِ فاطرق هنيهة ثم امر الوقوف بين يديهِ ان يفتحوا كوةً بجانبهِ وكان وراءها قفير نحل فلما فتحوها دخلت النحل منها وميزت بينهما ووقعت على الازهار الطبيعية دون الصناعية . واني أرى في انتفاع النحل من الزهر وانتفاع البشر منها ومنهُ طرفاً من ذلك الناموس العام الشامل لكل المخلوقات الذي يجبرها على ان لا يعيش الواحد منها لنفسهِ بل يعيش كلٌّ منها للآخر

هذا وقد تكرّم الرجال بتشبيه النساء بالازهار فلنحرص لكي يصدق هذا التشبيه علينا في الطهارة والنفع وطيب الصيت وتخفيف اتعاب العيال وازالة كروبها وتهذيب الصغار وتجميل الهيئة الاجتماعية وتطييب عرفها

بعض المخللات

الخيار المخلل * انتقِ الخيار الاخضر الصغير واغسلهُ جيّداً وضعهُ في اناء وصبَّ عليهِ ماء مملحاً (في كل رطل من الماء نحو اوقية من الملح) واتركهُ فيهِ نحو ١٢ ساعة ثم ارفعهُ من الماء وانشفهُ وائتِ بالخل الحاذق واضف اليهِ خردلاً وفليفلة وزنجبيلاً وقليلاً من جوز الطيب واضف ايضاً الى كل اقة من الخل قطعة من الشب الابيض قدر الحمصة واغلهِ على النار وضع الخيار في اناء خزفي وصبَّ الخل عليهِ وغطهِ وضعهُ في مكان بارد واذا اضفت اليهِ قليلاً من السكر زادت حذاقة الخل وحُفظ فيهِ الخيار زماناً طويلاً

البصل المخلل * قشر البصل الصغير وانقعهُ في الماء الملح اربعاً وعشرين ساعة ثم انشفهُ وانقعهُ في الخل كما نقعت الخيار

القنبيط المخلل * قطع القنبيط واغمره بالملح يوماً كاملاً ثم انقعه في الخل كما تقدّم ولا تنسَ ان تضيف اليهِ قليلاً من الشب

الدراقن المخلل * اذب اقة من السكر في اقة من الخل واضف اليها قليلاً من القرفة وكبش القرنفل واغلها على النار واسلق فيها ثلاث اقات من الدراقن دفعات متوالية حتى تلين قليلاً ثم صب السائل فوق الدراقن المسلوق وسد عليهِ . وعلى هذا الاسلوب يخلل الخوخ والاجاص (كثرى) ونحوها من الفواكه . اي ان الخضر تنقع في الماء الملح اولاً ثم في الخل الغالي الذي أُضيف اليهِ خردل وفلفلة وزنجبيل وجوز الطيب والشب الابيض . والفواكه تسلق في الخل والسكر ثم تنقع في ذلك الخل بعد ان يطيَّب بالقرفة وكبش القرنفل

بعث الينا رفعتلو رشيد افندي غازي بالنبذ الثلاث الآتية وهي منقولة عن كتاب عربي كُتِب سنة ٦٢٣ للهجرة

(١) ملح مطيب

يؤخذ الملح الحجار الكبار ويجعل في جرّة فخار جديدة ويسد رأسها ثم تترك في تنور حار يوماً كاملاً وتخرج منهُ فاذا برد يطحن طحنًا ناعمًا ثم يؤخذ الكسفرة والسمسم والشونيز (الحبة السوداء) والشهدانج والخشخاش والكمون والرازنج وورق الانيسون يحمص الجميع ويخلط بهِ وقد يصبغ الملح بعد طحنهِ بان يجعل في ماء فيهِ زعفران يومًا وليلةً ثم ينشف من الماء ويعاد طحنهُ وقد يصبغ كذلك بماء السماق او بالاسريقون ومن ارادهُ اخضر بماء السلق

(٢) نعنع مخلل

يؤخذ النعنع الطري الكبير الورق فينظف ورقهُ من عيدانهِ ثم يغسل وينشف في الظل وتذر عليهِ الافاويه الطيبة ومن احب فليضف عليهِ ورق كرفس واسنان ثوم مقشر ويجعل في برنية زجاج ويغمر بالخل الجيد ويصبغ بسير زعفران ويترك الى ان يشرب الورق حموضة الخل وتنقطع حدّتهُ ويستعمل

(٣) باذنجان مخلل

يؤخذ الباذنجان الاوساط فيقطع نصف اقماعهِ وورقهِ ثم يسلق نصف سلقة في ماء وملح ويرفع وينشف من الماء ثم يشق صليبًا ويحشى بورق الكرفس الطري وطاقات يسيرة من نعنع واسنان ثوم مقشرة ويعبى بعضهُ على بعضٍ في برنية زجاج ويذر عليهِ شيء من الافاويه واطراف الطيب مسحوقة ناعمًا ويغمر بالخل الجيد ويترك الى ان يستحكم نضاجهُ ويستعمل